

تاريخ القبول: 2023/02/21

تاريخ الإرسال: 2022/02/04

تاريخ النشر: 2023/06/03

آليات الحجاج في الرسالة الجدّية لابن زيدون Mechanisms of argumentation in The serious epistle (Al-risala'ldjeddia) of Ibn Zaydoun

عبد الحميد عطية¹جامعة تيسمسيلت (الجزائر)، azertqsdfg007@gmail.com¹

مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة

الملخص

في هذه الورقة البحثية دراسة حجاجية للرسالة الجدّية، فابن زيدون حاول إقناع الأمير ابن جهور أنّه بريء؛ لذا نهدف إلى دراسة آليات الحجاج الموجودة في هذه الرسالة.

وستخلص هذه الدراسة إلى أنّ الرسالة الجدّية اجتمعت فيها البراعة الفنيّة والقدرة الحجاجيّة، فقد جعل ابن زيدون رسالته خطاباً من مرسل (ابن زيدون) إلى مرسل إليه (الأمير ابن جهور) لإقناعه بأنّه بريء، فاستخدم آليات حجاجيّة متنوّعة من أهمها: مخاطبة الأمير بما يقتضيه مقامه، واستعمال أساليب التأكيد كالقسم والتكرار وأدوات التأكيد، واستعمال الجمل الشارحة والجمل التعليلية، والحجج البلاغية كالتشبيه والاستعارة والخبر والإنشاء، كما استعان بالأمثلة العربية لإقناع الأمير.

الكلمات المفتاحية: الرسالة، الجدّية، الحجاج

Abstract

In this research paper an argumentative study of the serious epistle, where Ibn Zaydoun tried to convince Prince Ibn Jahour that he was innocent; So we aim to study the mechanisms of argumentation in this letter.

This study will conclude that the serious epistle brought together artistic prowess and argumentative ability. Ibn Zaydoun made his epistle from a sender (Ibn Zaydoun) to a receiver (Prince Ibn Jowhar) to convince him that he was innocent. Therefore he uses a variety of argumentative mechanisms, such as: Addressing the Prince as required, using confirmation techniques such as swearing, repetition and confirmation tools. Besides to the use of explicit and structural sentences, rhetorical arguments like analogy, metaphor, statements and compositional phrases. He uses also some Arabic examples to convince the Emir.

Keywords The serious, epistle, Al-risala, Idjeddia, argumentation

المؤلف المرسل: عبد الحميد عطية، AZERTQSDFG007@GMAIL.COM

1. مقدمة

الرسالة الجدّية من الرسائل الأدبية التي حظيت بالاهتمام قديماً وحديثاً؛ فقد نسج على منوالها بعض الأدباء، وقد تُرجمت إلى بعض اللغات، وُشرحت مثل شرح الصّفي الذي أسماه بـ: تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون. وكان يهدف ابن زيدون من هذه الرسالة أن يغيّر من سلوك مخاطبه ويقنعه عن العدول عن رأيه؛ لذا تعدّدت في الرسالة آليات الحجاج، وهذه الدراسة تحاول كشف بعض هذه الآليات.

فما هو الحجاج؟ و ماهي آلياته الواردة في الرسالة؟

2. الحجاج

1.2 لغة

جاء في لسان العرب: «يُقَالُ حَاجَجْتُهُ أَحَاجُهُ حَاجِجًا حَتَّى حَجَجْتُهُ أَي: غلبته بالحجج التي أدليت بها... والحجّة: البرهان وقيل: الحجّة: مادّفع به الخصم. وقال الأزهري: الحجّة الوجه الذي يكون به الطّفر عند الخصومة. وهو رجل محتاج أي: جدل. والتّحاجّ التّخاصم. وجمع حجّة: حججّ وحجاج. وفي الحديث «فحج آدم موسى»: أي غلبه في الحجّة»¹.

من تعريف ابن منظور ينتج لنا أنّ الحجاج يكون في الخصومة وينتج عنها - الخصومة - الغلبة بالحجّة والبرهان.

2.2 اصطلاحاً

يعرّف برلمان وتيتيكاه نظرية الحجاج بأنها نظرية تهتم بدراسة التّقنيات الخطابية «التي من شأنها أن تؤدّي بالأذهان إلى التّسليم بما يُعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التّسليم»²

الحجاج «هو تقديم الحجج و الأدلة المؤدية إلى نتيجة معيّنة»³ ، فقولنا « أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى الراحة... فالتعب في الجملة الأولى يستدعي الراحة ويُقنع النفس أو الغير بضرورتها؛ فالتعب دليلٌ وحجّةٌ على أنّ الشّخص المعني بالأمر بحاجة إلى أن يرتاح ويستريح»⁴.

ثم أعطيت للحجّة مفاهيم جديدة أوسع من المفهوم السابق المرتبط بالقول فقط؛ فهي «عبارة عن عنصر دلالي يقدّمه المتكلّم لصالح عنصرٍ دلالي آخر، والحجّة قد ترد في هذا الإطار على شكل قولٍ أو فقرةٍ أو نصٍّ، أو قد تكون مشهداً طبيعياً أو

سلوكًا غير لفظي إلى غير ذلك. والحجة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السياق، والشئ نفسه بحسب النتيجة والرابط الحجاجي الذي يربط بينهما»⁵.

3. طرق الحجاج في الرسالة الجدّية

ابن زيدون الشاعر الناصر الأندلسي صاحب الوزارتين، وهو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون، يُعد من أشعر شعراء قرطبة، عاش في أواخر عصر الخلافة، وأدرك عصر الطوائف، توفي في إشبيلية سنة: 463هـ.

وُصف بأنه شاعرُ الحبّ والجمال، فقد أكثر التغزل في ولادة بنت المستكفي، وزاد حبه وولعه بها في أيام البين. وقد برع أيضًا في النثر لتقافته الواسعة وإطلاعه على علوم العرب وكلامهم، ومن أشهر رسائله: الرسالة الهزلية والرسالة الجدّية. والرسالة الجدّية هي رسالة كتبها ابن زيدون داخل السجن وجهها إلى الأمير ابن جوهر يستعطفه فيها ويطلب من أن يخرج من السجن.

1.3 عناصر التواصل في الرسالة الجدّية

تعتبر الرسالة عمومًا شكلًا من أشكال التواصل؛ لأنها عبارة عن كلام صادر من مرسلٍ عبر قناة وهي الرسالة إلى مرسلٍ إليه، وهذا لتحقيق غرض تواصلٍ محدّد.

فالرسالة الجدّية قد احتوت على عناصر التواصل من مرسلٍ وهو ابن زيدون ومرسلٍ إليه وهو الأمير ابن جهور وقناة وهي الرسالة، ومن غرضٍ وهو إقناع ابن جهور في العدول عن سجن ابن زيدون والإفراج عنه.

وقد أقام ابن زيدون جسرًا تواصليًا بينه وبين متلقي خطابه وهو الأمير ابن جهور عبر استعماله لصيغ حوارية متعددة نذكر منها:

-النداء: كقوله: «يا مولاي وبيا سيدي الذي ودادي له ...»⁶؛

-ضمير المخاطَب: كقوله: «إن كنت لم أكسك سَلِيْبًا، ولا حَلِيْبَتَكَ عَطْلًا، ولا وِسْمَتَكَ غُفْلًا»⁷؛

-الاستفهام: كقوله: «ولا أخلو من أن أكون بريئًا فأين عدلك؟ أو مسيئًا فأين فضلك؟»⁸.

وما دام غرض الرسالة هو الإقناع فقد استعمل ابن زيدون آليات وطرق حجاجية ليصل إلى غرضه، فماهي أهم الطرق الحجاجية المستعملة في الرسالة الجدية؟

2.3 الخطاب التواصلي خطاب وفق مقتضى الحال

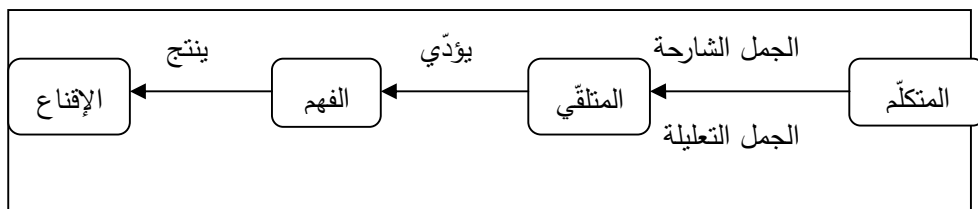
إن ابن زيدون في رسالته الجدية كان يخاطب مخاطبه بما يقتضيه حالته (أي حالة المخاطب وهو الأمير) فقد وازن بين المعاني وبين قارئه وبين مقتضى حاله؛ ففي بداية الرسالة خاطبه خطاب الأمير محافظاً على مكانته فقال: «يامولاي، وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه واعتدادي به، وامتدادي منه، ومن أبقاه الله تعالى ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة»⁹.

فمن خلال هذا المقطع نلاحظ أن ابن زيدون يعلن في البداية مكانة المخاطب بما يقتضيه حاله وهي الحالة الأميرية، ويصف حالته الضعيفة المحتاجة لأمرها أيضاً منذ البداية؛ فهو لا يساوي شيئاً بدون أميره لأنه المعتمد وهو الذي يعتد به و يُطلب منه المدد، وقد حافظ ابن زيدون على هذه المكانة في كامل الرسالة.

إن هذا الخطاب الذي يوافق حال الأمير وحال المتكلم، يبنى جسراً من المودة بين ابن زيدون والأمير، ويجعله (أي الخطاب) خطاباً حجاجياً هدفه تهيئة المتلقي للطلب الذي يريده ابن زيدون.

3.3 الشرح والتعليل

استعمل ابن زيدون الجمل الشارحة و الجمل التعليلية ليفهم المتلقي، وبعدما يفهم المتلقي يقتنع، والاقتناع غاية الحجاج، ويمكن أن نوضح الكلام السابق بالخطاطة الآتية:



فالشرح استعمله ابن زيدون لتبيين المعاني ولبلوغ الفهم، حتى يحصل الإقناع ومثال ذلك قوله: «فكيف ولا ذنب إلا نميمة أهداها كاشح، ونبا جاء به فاسق»¹⁰. ثم يشرح قصده ب: كاشح، وفاسق. فيقول: «وهم الهمّازون المشاؤون بنميم، والوشاة الذين لا يلبثوا أن يقرعوا العصا، والغواة الذين لا يتركون أديماً صحيحاً، والسعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال: ما ظنك بقوم الصدق محمود إلا منهم»¹¹.

هذا الشرح للفظتين مع المبالغة في الوصف عن طريق استعماله لصيغ المبالغة (همّازون، مشاؤون) تساهم في العملية الحجاجية للنص، تجعل المتلقي يتأثر ويغير في أحكامه، أو يراجعها، أو على الأقل تدخل الشك والريب في نفسه.

أما التعليل فهو عملية تستهدف عقل المتلقي لإفهامه، وبعد الفهم يقتنع برأي المتكلم أو يعود عن رأيه، وقد استعمله ابن زيدون في الرسالة مثل قوله: «هذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع، ولن يريبنني سيدي أن أبطأ سبيه، أو تأخر-غير

ضنين - غناؤه، فأبطأ الدلاء صعوداً أملؤها، وأثقل السحاب مشياً أحفلها، وأنفع الغيث ما صادف جدباً، وألذ الشراب ما أصاب غليلاً»¹².

فقد علّ ابن زيدون عدم ريبه عندما أبطأ سيب سيده، بأن الإبطاء لا يأتي إلا بالخير العميم فهو كالدلاء المملوءة، وتأخر غناؤه إنما لثقل عطايها التي هي كثقل السحاب الحافل بالماء.

4.3 أساليب التأكيد

لجأ المتكلم إلى استعمال أساليب التأكيد ليؤكد أخباره ومعانيه، وابعاد الشكوك، وهو بهذا يُعتبر آلية من آليات الحجاج، ومن أساليب التوكيد الموجودة في الرسالة: أ- القسم: كقوله: «و والله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انحرفت عنك بعد الصّاغية لك، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك...»¹³.

هذا القسم فيه تأكيدٌ للغاية الأساسية للرسالة؛ ألا وهي طلب البراءة عن طريق تأكيده أنه لم يتبدّل عنه ولم ينصب له العداء.

ب- التكرار: والتكرار من أساليب التأكيد وهو على نوعين: لفظي ومعنوي؛ فاللفظي كتكرار لفظ الحساد في قوله: «والحين قد يسبق جهد الحريص

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى وتسهون غير شماتة الحساد وإني لأتجلّد، وأري الحاسدين أنّي لا أتضعع»¹⁴، فاستعماله للفظ الحساد وتأكيده عليه بتكراره تأكيد على أنّه ضحية استهدفه حساده، وأنّه برئ.

والمعنوي كقوله: «فقد يغصّ بالماء شاربُه، ويقتل الدواء المستشفى به، ويؤتى الحذر من مأمّنه، وتكون منية المتمني في أمنيته، والحين قد يسبق جهد الحريص»¹⁵، فهو يكرّر معنى واحداً وهو أنّ «الشرّ قد يأتي من طريق الخير»¹⁶، وهذا تأكيدٌ لمعنى محبته للأمير، وأنّ هذه المحبة هي السبب في سجنه.

ج-أدوات التوكيد: ومن بين أدوات التأكيد: إنَّ. وفي هذا المقطع «وإني لأتجدد، وأري الحاسدين أنني لا أتضعع»¹⁷ استعمل إنَّ مرتين ليؤكد أنه صابر.

5.3 الحجاج البلاغي

أ- التشبيه

للتشبيه قيمة جمالية وقوة إقناعية؛ فهو يقرب المعاني إلى ذهن المتلقي عن طريق تشخيصها، أو تزيد المعنى وضوحاً وتأكيداً إذا كان طرفا التشبيه محسوسين، وبالتالي التشبيه له علاقة بالمعاني وتمكينها في ذهن المتلقي؛ لذا فللتشبيه قوة إقناعية وحجاجية أكثر من الكلام المباشر العادي . ففي قول ابن زيدون: «إن سلبتني -أعزك الله- لباس إنعامك وعطّلتنني من حلّي إيناسك»¹⁸، فإنعام الأمير لباس يكسي ابن زيدون، وموانسة الأمير حلّي يزين ابن زيدون، وتكمن القيمة الحجاجية لهذه التشبيهات في قيمة الأمير عند ابن زيدون حتى أنه لباس وحليّ يكسي ابن زيدون ويزينه، فهل يقترب ابن زيدون إثماً يُغضب الأمير وهو بهذه القيمة.

ب-الاستعارة

«الاستعارة من الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم للوصول إلى أهدافه الحجاجية»¹⁹؛ لأنَّ الاستعارة تؤثر في المتلقي وتجعله يدرك المعاني في صور محسوسة، أو تقرب المحسوس إلى العقل أكثر، وهي أبلغ من التشبيه، كيف لا وهي عبارة عن تشبيه حُذف أحد أركانه، وبالتالي هي أقوى من التشبيه في الإقناع والحجاج.

يقول ابن زيدون: «ماضي حدّ العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة»²⁰. فالعزم كالسيف ماضي وحادث، ووريّ الزند خروج ناره ويريد أن الأمير سخي الكف لمن أمّله ورجاه كالزند في خروج ناره عند الحاجة عقيد النعمة كالثابت فيها²¹.

ج- الأساليب الإنشائية

قسّم البلاغيون الأساليب إلى قسمين: خبري وإنشائي. فالخبري هو «الخطاب التّواصلي المكتمل إفادياً الذي يريد المتكلم من نسبته الكلامية أن تطابق نسبته الخارجية»²²، وقد استعمله ابن زيدون للتقرير وعلى حمل المتلقي على التصديق مثل قوله: «وما أراني إلّا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت...»²³ وأما الإنشائي هو «الخطاب التّواصلي المكتمل إفادياً الذي يريد المتكلم أن توجد نسبته الخارجية»²⁴، وهو على نوعين: طلبی وغير طلبی.

ومن الأساليب الإنشائية استعماله للاستفهام المجازي في قوله: «ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك، والتّطاول الذي لم يستغرقه تطوّلك، والتّحامل الذي لم يف به احتمالك؟»²⁵.

فهذا الاستفهام لا يريد ابن زيدون الجواب من ابن جهور، إنّما هو استفهامٌ حاجي يريد أنّ يبيّن للأمير أنّ ذنبه مهما عظم لا يعظم أمام عفو الأمير وحلمه. فهو مقارنة غير مباشرة. وهذا أسلوب الإنشائي بصيغة الاستفهام عدل به عن الأسلوب الخبري؛ لأنّ ابن زيدون أراد أن يقول: إنّ ذنبه صغيرٌ ضئيلٌ. لكنه عدل عن الخبر إلى الإنشاء لأنّ الإنشاء أكثر إقناعاً والاستفهام على عكس التقرير أو النفي أو يكون محتوى العنوان الفرعي الثاني هنا.

النهى يوجه المخاطب إلى ما يريده السائل²⁶، فهنا ابن جهور سيقول في قرارة نفسه: إنّ ذنب ابن زيدون يسعه عفوي.

ومن الأساليب الاستفهامية المجازية التي استعملها للمحاجة من أجل الإقناع قوله: «ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين عدلك؟ أو مسيئاً فأين فضلك؟»²⁷؛ فهنا يذكر للأمير احتمالات عقلية كلّها تؤدي إلى غرض ابن زيدون وهو الخروج من السجن، حيث إنّ إمّا أن يكون بريئاً فيسعه عدل الأمير، أو مذنباً فضّل الأمير أوسع.

6.3 حجاجية الأمثال

تتميّز الأمثال بجانبين: فني وحجاجي؛ فالفني لأنها قولٌ موجز العبارة جميل الصورة، وحجاجي لأنها تستعمل لتبيان فكرة أو تؤتي بها كشاهدٍ أو لتعليل حكمٍ أو تنفيذ فكرة...

«إنّ ما يزخر به المثل من مقوماتٍ بلاغيةٍ من شأنه التأثير في المتلقين، وإقناعهم بما يحمله خطاب المتكلم من أفكار، لذلك قيل إنّ بلاغة الكلام هي تأثيرٌ نفسي في نفسي، وفكرٍ في فكرٍ، والأثر من ذلك التأثير هو التغلب على مقاومة في هوى المخاطب أو في رأيه»²⁸.

ومن الأمثال التي استعملها ابن زيدون قوله: «ويؤتى الحذر من مأمنه»²⁹، فقد استعمله ابن زيدون ليعلل للأمير ما قام به من سجنه، فكأنه يقول: فبالرغم من سجنك لي فأنا أجد لك العذر وهو أنّ الشخص الحذر قد يؤتى من الجانب الذي أسأمنه زلم يخف جانبه، فهذا دليل على محبة ابن زيدون لابن جهور، و المحبة تجعل المحبّ لا يخون محبوبه.

وقوله: «وهذه النبوة غمرةٌ ثم تتجلي»³⁰ فهذا المثل يُضربُ في تحمّل الشدائد العظام، والمتشكلة في فراق الأمير بسبب السجن، فهو دليل آخر على المحبة، وبالتالي دليل على قيمة ابن جهور الكبيرة عند ابن زيدون، وأنّ الفراقه بالسجن مصيبة كبيرة وشدة عظيمة.

4. خاتمة

استطاع ابن زيدون في الرسالة الجدّية أن يزاوج فيها بين المتعة الفنيّة والإقناع العقلي، فجعل رسالته خطاباً من مرسلٍ (ابن زيدون) إلى مرسلٍ إليه (الأمير ابن جهور) لإقناعه بأنّه بريء.

ولأجل إقناع الأمير استعمل ابن زيدون آليات حجاجية متنوعة، فأنزل المخاطب (ابن جهور) منزلته وخاطبه بما يليق بمقامه حتى يبني جسراً من المودة تجعل المخاطب مهيناً لتقبل الطلب.

ثم راح ابن زيدون يعدد في حججه اللغوية والبلاغية والتراثية (الأمثال والأشعار)؛ فخاطب عقل الأمير بالشرح والتعليل وأساليب التوكيد.

كما خاطب وجدان الأمير وعقله بواسطة الحجج البلاغية كالتشبيه والاستعارة والأساليب الخبرية والإنشائية.

واستعمل الأمثال العربية لتدعيم حججه وتقوية موقفه وتبرئة نفسه من كل التهم.

إن اجتماع اللغة الفنية الجميلة والحجج العقلية، جعل من الرسالة الجديدة أحد أعظم الرسائل الأدبية في التراث الأدبي.

5.المراجع

¹ - ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير - محمد أحمد حسب الله - هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ص 779.

² - عبدالله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر، تونس، الطبعة الأولى 2011، ص 13.

³ - حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء 1، الطبعة الأولى 2010/1431، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ص 57.

⁴ - حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، الجزء 1، ص 58.

⁵ - نفس المرجع، ص 58.

⁶ - خليل ابن أبيك الصّفي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص 22.

⁷ - نفس المرجع، ص 25.

⁸ - نفس المرجع، ص 23.

- 9 - نفس المرجع، ص 22.
- 10 - نفس المرجع، ص 24.
- 11 - نفس المرجع، ص 24.
- 12 - نفس المرجع، ص 23.
- 13 - نفس المرجع، ص 24.
- 14 - نفس المرجع، ص 22.
- 15 - نفس المرجع، ص 22.
- 16 - أبو بكر محمد عليم، الدرّ المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، مطبعة الشرق، الطبعة الأولى 1345/1962، ص 27.
- 17 - خليل ابن أبيك الصّفي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 22.
- 18 - نفس المرجع، ص 22.
- 19 - أبو بكر العزاوي، اللّغة والحجاج، الطّبعة الأولى 1426/2006، ص 105.
- 20 - خليل ابن أبيك الصّفي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 22.
- 21 - أبو بكر محمد عليم، الدرّ المخزون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 24.
- 22 - خيرة عامرة، البعد الحجاجي في رسالة الأنوار لابن عربي، مجلّة إشكالات، المجلد 3، العدد 2، أفريل 2014، ص 51.
- 23 - خليل بن أبيك الصّفي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 23.
- 24 - خيرة عامرة، البعد الحجاجي في رسالة الأنوار لابن عربي، مجلّة إشكالات، ص 52.
- 25 - خليل بن أبيك الصّفي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 23.
- 26 - ينظر عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص 98.
- 27 - خليل ابن أبيك الصّفي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 23.
- 28 - محمد شكيمة، آليات الحجاج في المثل الشعبي بوادي سوف، مجلّة إشكالات في اللّغة والأدب، مجلد 8، العدد 5، السّنة 2019، ص 73.
- 29 - خليل ابن أبيك الصّفي، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، ص 22.
- 30 - نفس المرجع، ص 22.